ملحق جريدة النهار ٢٩ نيسان ١٩٩٧

استنساخ الانسان، هل ينجح؟!

مرة جديدة يدهشنا العلم بأبحاثه واكتشافاته الفريدة الى حد مذهل. فقد طالعتنا وسائل الاعلام باكتشاف الاستنساخ (clone او cloning) الذي توصل الى انجازه العالم الاسكوتلندي (Ian Wilmut) الذي يشرف على معهد الابحاث (Roslin Institute وEdinbourg) حيث النعجة المستنسخة دوللي أبصرت النور هناك بعد تجارب وصلت الى نحو الثلاثمئة محاولة!

تقنية الاستنساخ هذه – أي الخلق من اثنى فقط، دون الاستعانة بالحوين المنوي الذكري – جرت على ثلاث مراحل، واستعملت فيها ثلاث نعجات:

١– استخلاص خلية من الغدة الثديية للنعجة الاولى.

٢– استخلاص بويضة من نعجة اخرى ازيلت منها نواتها.

٣– زرع الخلية في البويضة في رحم نعجة ثالثة لحملها.

هكذا تمت عملية الاستنساخ في المختبر من دون أب، وبعد خمسة اشهر ظهرت دوللي الى الحياة وهي نسخة طبق الاصل عن أمها الاولى، تلك التي استخلصت الخلية منها.

بعد استنساخ دوللي بقليل، ظهرت في الصحف صورة اخرى لعالم اميركي يحمل توأم قردة استنسخا بالطريقة ذاتها في اميركا.

هذان الخبران هما باكورة تجارب بدأت منذ سبعين عاما بلا كلل ولا ملل ولا يأس كما تقول وسائل الاعلام، وتوارث العلماء المهتمون النتائج والابحاث لاجيال عدة حتى نجحوا فيها اخيرا.

بدأت التجارب في العشرينات على النبات عندما سعى فريق من علماء البيولوجيا الى تحسين المحصول الزراعي وانتاج ثمار متماثلة اللون والطعم والحجم والوزن ايضا لاغراض تجارية بحتة، تضمن الجودة والنوع والوزن، وتجارب مصانع العصير والمعلبات، ونجحت التجارب في الخمسينات، وتطورت في الستينات اذ ظهرت في الاسواق اصناف جديدة من البندورة لها الحجم واللون والطعم نفسه منها المستطيل البيضوي، والمكور الصغير الذي هو في حجم ثمرة العنب، ورأينا صناديق التفاح التي لا تختلف ثمرة فيه عن اخرى، ورأينا العنب المتماثل الحجم واللون، وبدون بذرة. ثم تطور الامر بانتاج شجيرات نخيل متماثلة تماما. ولكن لم يتصور أحد ان يتعدى ذلك الى الحيوان حتى ظهرت النعجة دوللي الى الوجود.

بعد نجاح استنساخ دوللي، ينكب العلم حول امكان استنساخ الانسان. في الواقع، هذه الفكرة راودت أحد العلماء الاميركيين في الثلاثينات، اذ قال: جميع العناصر المعدنية التي يتكون منها جسم الانسان، بما فيها كميات الفيتامينات والبروتين، هذه كلها نستطيع ان نبتاعها من الصيدلية بسعر لا يتعدى دولارا واحدا فقط! ولكن هل نستطيع ان نجعل منها انسانا؟!

وما زال الحلم يبحث عن تحقيق ذاته. وهذا ما اثار مخاوف رجال الدين ورؤساء الدول الكبرى، فدان قداسة البابا الاستنساخ، كذلك منع الرئيس كلينتون تمويل التجارب عليه، كما منعها الرئيس شيراك ايضا.

ويبقى السؤال: هل يستطيع العلم استنساخ الانسان؟ هل يستطيع المخلوق ان يكون خالقا؟ هل يمكن الانسان ان يتحدى الخالق او يتطاول على قانون الخلق؟ لا شك ان اسئلة كثيرة، اخلاقية واجتماعية وغيرها، راودت المنطق العلمي، علما ان مستنسخ دوللي (الدكتور ويلمت) قام وفريقه بأبحاث وتجارب سبقت دوللي على الانسان، فلم يحالفه النجاح، اذ قال: "ان خلايا الدماغ (البشري) والغضلات هي خلايا متخصصة (specialized) بالانسان، بمعنى انها اكثر تعقيدا من مثيلتها لدى الحيوان بحيث لا يمكن اعادتها الى نقطة الصفر". وهذا ما جعله يستغني عن ابحاثه عن الانسان في الوقت الحاضر، وينكب على استنساخ الحيوان اولا.

وهذا ما يعيد الى الاذهان اعتراف داروين بأن ثمة حلقة مفقودة بين الانسان والحيوان. هذه الحلقة هي التي جعلته يتخلى عن نظريته بان الانسان من اصل حيوان! فهل ابحاث ويلموت هي الحلقة المفقودة في استنتاجات داروين؟!

عام ١٩٩٣ استنسخ علماء الاجنة في جامعة جورج واشنطن أجنة بشرية بعدما أخذوا خلايا من ١٧ جنينا بشريا، وفصل العلماء هذه الخلايا في المختبر وطوروها حتى صار حجمها يسمح بزرعها في رحم امرأة. ومن المؤكد ان هذه التجربة فشلت لاننا لم نسمع بنجاحها.

انما مجلة "NATURE" التي نشرت ملف النعجة دوللي توقعت ان استنساح البشر من انسجة بالغة ممكن في غضون عشر سنين من الآن. واهم من هذا كله ما تبين للعلم ان ما ينطبق على الحيوان لا ينطبق على الانسان.

في ضوء كل ذلك لا بد من التساؤل: هل الانسان كائن حيوي معقد التركيب المادي وحسب او هو لامادي التكوين اصلا استنادا الى طاقات لامادية عدة اهمها الذكاء وشعور الحب؟ هل يصح الغاء دور الرجل من الوجود؟ مع ان استنساخ الحيوان لم يتوصل بعد الى استيلاد ذكر! وثمة اسئلة اخرى كثيرة يسبق أوان طرحها في الوقت الحاضر.

ولاننا نبغي من وراء بحثنا معالجة الموضوع بالمنطق العلمي المجرد، نذكر العلماء بما ذكروه هم أنفسهم بأن الانسان عموما يستعمل اقل من عشر طاقاته، اي انه ما زال بعيدا كل البعد عن معرفة نفسه ومحتويات ذاته، وان ارتفعت هذه النسبة بين العلماء، فنراهم لا يزالون يتبحرون في خضم المادة دون ان يكتشفوا علاجا للامراض المستعصية على العقل!

لقد درسوا الانسان ظاهريا وتعمقوا في وظائف كل من اعضائه الداخلية. لكن لم يخطر ببالهم قط أن هناك كيانا باطنيا خافيا عن النظر، او لنسمه جهاز وعي يسير وظائف الدماغ وييسر وظائف القلب هو أثيري التكوين، ومن نتائجه الحقل الكهربائي المغنطيسي المحيط بالجسد الذي أقر به العلم اخيرا، وسماه بعض العلماء الطاقة الكيميائية الحيوية (Biochemical energy). صحيح ان هذه الطاقة تتخلل كل خلية وتضخها بالحياة والحركة، ولو كانت الخلية هي التي أوجدت الطاقة لكان هان البحث في الاستنساخ. لكن العكس هو الصحيح لان القضية لامادية اصلا.

وماذا ايضا عن العقل والنفس والروح؟ هل توصل العلم الى ايجاد الفارق بين العقل والدماغ، وبين العقل والوعي، وبين النفس والذات؟ وهل عرف ماهية الروح، او على الاقل تبحّر في مكونات الوعي الباطني؟! أليست هذه هي المكونات اللامادية التي على اساسها تكون الجسد المادي؟ لذا يتوجب دراسة الانسان ككل، بسائر ابعاده وآفاقه، بخفاياه قبل ظواهره، بالاصول قبل الفروع. الانسان هو الحقيقة وحقيقته هي ما يجب ان نعرفها قبل ان تساورنا فكرة استنساخه.

من عادة العلم انه يتوقف عند وصوله الى حائط مسدود، حيث يجد فراغا بعده، هذا الفراغ (الذبذبي) هو في الحقيقة بداية العالم اللامادي، فذبذباته هي اصل كل مادي، اذ منها تكونت ذرات عالم الارض.

أنكر مرة أني قرأت تجربة في الستينات لعالم سوفياتي بأنه شاهد نورا في اعماق الخلية، فأوقف تجاربه متسائلا: هل في النهاية لا شيء غير النور، أم ان بحثه وصل الى اعتاب عالم نوراني جديد يلزمه معدات وتقنيات ومعارف من نوعه هي غير متوافرة؟!

ولو فرضنا جدلا ان هذا العالم وفريقه كانوا يبحثون في امكان الاستنساخ البشري، من منطلق أن الاتحاد السوفياتي (سابقا) كان متفوقا على الغرب في اختبارات الطاقات الخفية التي اكتشفها في الانسان – والمؤلفات العديدة التي ترجمت عن الروسية تشهد على ذلك – لكان نجح في الاستنساخ، ولسادت الشيوعية العالم بفكرة لا وجود لله، او ان الله مات، بحسب قول نيتشه. فهل انكار وجود الله هو ما دمر الامبراطورية السوفياتية؟!

فليسكن هلع رجال الدين من امكان الاستنساخ البشري، وليطمئن رؤساء الدول الكبرى، ولا حاجة الى تحريمه او منعه. فمن يتطاول على العزة الالهية سيفشل حتما. وتاريخ الحضارات الاقدم على وجه الارض كان خير دليل على ذلك.

المهندس طوني عبد النور
(استاذ في الجامعة اللبنانية)